PSYCHOLOGYAND EDUCATION(2024)61(7):112-120
ISSN:1553-6939

Systematic issues in reading heritage at Mohammed Arkun

Dr. Fadhila Mebarek [1], Pr. MOHAMMEDI RIAHI Rachida[2]

[1]University Ibn khaldoun of Tiaret (Aleria).

[2]University of Oran (Aleria).

The Author's E-mail: fadhila.mebarek@univ-tiaret.dz1, rachidariahi@yahoo.fr2

Received: 16/04/2024 **Published: 28/06/2024**

Abstract:

Arkonist intellectual moment represents a revolution over theological studies with epistemological critical vision based on analytical approaches that move from theology to applied Islamism with Western thought bypassing by thinking of authentic tools that encompass the concept of comparative historical criticism and providing a new understanding of religious texts that correspond to the spirit of the new age within their historical and cultural context, Emphasizing the great interaction between text, society and culture in modernist reading of heritage in a critical scientific methodology question in a legitimate question: What are the methodologies for reading heritage?

Keywords: Applied Islamism, Heritage, Criticism, Religious Text, Humanity

قضايا منهجية في قراءة التراث عند محمد أركون

د. مبارك فضيلة[1]، أ/د. محمدي رياحي رشيدة[2]

[1]جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر).

[2]جامعة وهران 2 (الجزائر).

ملخّص:

تمثّل اللّحظة الفكريّة الأركونيّة ثورة على الدّراسات الثيولوجيّة برؤية نقديّة إبستيمولوجيّة وفق مقاربات تحليليّة تنتقل من الثيولوجيا إلى الإسلاميّات التّطبيقيّة، مع تجاوز الفكر الغربي

بالتّفكير في أدوات أصيلة تُوطِّنُ لمفهوم النّقد التّاريخي المقارن وتقديم مقاربة ذات فهم جديد للنّصّ الدّيني تتوافق وروح العصر الجديدة ضمن سياقها التّاريخي والثّقافي، مؤكّدا على التّفاعل الكبير بين النّصّ والمجتمع والثّقافة في القراءة الحداثيّة للتّراث في تساؤل منهجي علميّ نقديّ في سؤال مشروع: ما منهجيّات قراءة التّراث؟

الكلمات المفتاحيّة: الإسلاميّات التّطبيقيّة ، التّراث، النّقد، النّصّ الدّيني، الأنسنة.

المقدمة:

إذا كانت علاقة السؤال بالتراث ترفع دور المتلقي عن السائل، فإنها في الوقت نفسه تضعه في موقف الذي يقع عليه عبء المؤول. إنه يدخل كينونة التراث المشروع بعد أن تحرر من كثافة الميراث المصنوع كله، وراء الزمن وبيد صناع كانوا مرة يمارسون حريتهم في الخلق والتكوين ولم يعودوا يفعلون ذلك. الوعي الراهن الذي يسأل التراث يعني أنه لم يتلق منه كل شيء فمازال لديه من الأسرار والكلمات ما لم يبح ـ به ـ بعد.

ولو كان هذا التراث قد أدى كل ما في جعبته لانتفت الحاجة إلى السؤال، ولكان التأويل قد هبط إلى فعل طباعه واستنساخ عن نموذجه الكامل الذي صب التراث كله في قالبه المعطى وتوقفت شخصيته عند حدود الملامح التي تبدي نموذجه من خلالها.

صحيح أن "أركون" تعرض في الكثير من مقالاته السابقة لمشاكل التراث، الحداثة والتحديث في العالم العربي الإسلامي. ولكن إهتمامه الأساسي كان ينصب ولسنوات طويلة، على الفترة الكلاسيكية المبدعة من تاريخ الإسلام والعرب، وبكل ما يتضمنه ذلك من إشكاليات وعقبات، وآلام ومخاضات، قد أصبح واضحا للجميع أن مشكلة العرب والمسلمين تكمن في ذلك التوتر الجاد والهائج بين تراث ماضوي عريق ثم حاضر متعب متخلف من جهة، وبين حداثة كاسحة قوية ولدت ونمت وترعرعت على الضفة الأخرى من المتوسط.

والمشكلة في علاقة السؤال تلقاء التراث أنها في الأصل علاقة إلتباسية، لأنها تتوجه إلى استنطاق ما يفترض أنه توقف عن النطق، وأنه قال خطابه ذات مرة وقفله، ولكن يأتي السؤال لينسف الفرض هذا، ويصر على اعتبار خطاب الماضي أنه لا يزال قادرا على الكلام. وأنه لا يزال في حكم الخطاب المفتوح، لم يغلق وأن أجدا لا يستطيع إدعاء إغلاقه.

إنه تراثا وليس ميراثا، ليس مالا وبضاعة ومخطوطات، يتوارثها الجيل عن آبائه ويورث أبناءه ذلك هو الميراث، ذلك هو المنقول. وأما التراث فهو لم ينتقل بعد، ما لم يكن هناك لينقل إلى هنا، وما لم يضعه الجدود على تلك الأرض لتحمله أيدينا مجددا إلى بيوتنا وخزائننا السرية.

إن التراث غير موجود حقا، و لا يوجد إلا كلما تفكرت به، كلما استطعت أن تكشفه في ذلك، أنه يحمل لك عبء المسؤولية عنا يتجاوزك زمنيا ومكانيا. إنه دعوة سرية لإحياء

طقوس المشاركة مجددا مع كل ما يمس نداء التراث ينبع مع ذاته أولا لتشخيص قبالة وعيه، ويصير الأنت يصير الآخر الذي هو "الأنا" في لحظة دون أخرى. ولكنه "الأنت" القابل للحوار الذي ينتظرك حتى تحدثه، إنه منتظر سؤالك له، عنه وعنك إنه يخاطبك بصيغة المخاطب وهو يعني صيغة "النحن" (1)

نقول إن العالم الإسلامي ليس وحيدا على الصعيد الدولي حين يهتم بقراءة تراثه والعمل على إحياءه. بمعنى أن علاقتنا بالتراث تنبع من أن في هذا التراث الأنموذج التطبيقي لديننا ـ أو ما يطلق عليه: (الإسلام التاريخي)، كما أن انجازات الأمة الحضارية ومكاسبها الإنسانية قد تبلورت وتحققت فعلا في تلك الحقبة التاريخية من الزمن الذي نطلق عليها حاليا جزءا من التراث، وعلى هذا فإن إخراج الإسلام وحضارته من التراث يحول التراث إلى لا شيء...

1. قراءة التراث لماذا؟
2. كيف ينبغي أن تكون علاقتنا بالتراث؟
3. منهجيات قراءة التراث؟

لكي نجيب بإمكاننا أن نضرب مثالا على الاستعارة المنهجية في قراءة التراث العربي الإسلامي، بالنتاج الفكري والثقافي للمفكر الجزائري "محمد أركون" الذي يرى أن قراءة تراثنا الثقافي والفكري ينبغي أن تتم بمنهجية الإسلامية التطبيقية، التي تعتمد على العرض العلمي والقراءة المجردة من كل تحيز إيديولوجي للتراث.

وهدف هذه المنهجية النهائي على حد تعبير "أركون" نفسه هو خلق الظروف الملائمة لممارسة الفكر الإسلامي محرر من المحرمات العتيقة والميثولوجيا البالية ومحررا من الايديولوجيات الناشئة حديثا. وهو بهذا يسعى نحو تحقيق قطيعة ابستمولولجية مع فكر الإسلام وثقافته.

ويوضح "أركون" هذه المسالة بقوله: إن نيتي العميقة إن أعطي مثالا لما ينبغي أن يكون عليه اليوم اجتهاد مخلص في مستوى القوة الروحية والعقلية لكبار المفكرين الكلاسيكيين، ولكن مع قطيعة عقلانية مع الدعاوى المنطقية والمسلمات الإبستمولوجية، والجهاز التصويري لهؤلاء المفكرين أنفسهم وآمل أن تجلبوا كثير من القراءات إسهاما إيجابيا، لاستكشاف وتقدم العقل الديني والعقل العلمي الذي ما فتئت متجهة إلى فتحه، لتجنب هذه القراءات العقيمة التي تأخذ جملة ما أو تعبيرا ما، لتشكل منه المحضر المعتاد ضد كل ما هو مخالف...

وهو منهج يتجنب الأحكام التقويمية للظاهرة، واعتبار النتائج التي ينتهي إليها البحث الإمبريقي وحدها نتائج علمية...إننا لا يمكننا أن نقرأ تراثنا بدون منهجية واضحة لأنه لا بحث سوسيولوجي بدون منهجية تحدد البحث وتوجهه (2)

نعود إلى كتاب "أركون" "نزعة الأنسنة في الفكر العربي (جيل مسكوييه والتوحيدي) ففي الكتب الثاني يخصص فصلا كاملا تحت عنوان "بحثا عن المنهج مشكلة المصادر والأصول"، بقول فيه "إذ نتصدى لمعالجة مشكلة الأصول والمصادر فإننا نكون قد وصلنا إلى اللحظة الأساسية من بحثنا كله، ذلك أن نمط القراءة الذي سنطبقه على النصوص هو الذي سيتحكم بفهمنا لأعمال "مسكوييه" ثم لكل الفعالية الفلسفية في القرن الرابع الهجري (3)

سوف ننطلق أولا للبحث عن منهج ملائم لموضوع دراستنا ذلك عن طريق إبرازنا كيف أن طرائق البحث المتبعة حتى الآن في دراسة الفكر الإسلامي يمكن أن يصدق عليها و على صلاحيتها بواسطة موقف منهجي جديد متفتح على كل الإشكاليات والتأويلات الممكنة (4)

إذا كانت الحقيقة موجهة لكي تعلن وتنشر فهي تتجسد دائما عن طريق وساطة الإنسان في عمل لا ينفصم من التعبير والذكاء والإرادة والتجاوز فإنها تتطلب عدة مستويات من التحليل.

أولها : تحليل مستوياتها اللغوية والسيميائية من أجل الإحاطة بها في إكراهاتها الداخلية ومضامينها المحضة. لنوضح هنا قائلين بأن علم السيمياء (La sémiotique) هو الأول منطقيا إذا ما أردنا التحدث عن المعنى، ولكنه منهجيا يأتي في المرتبة الثانية بعد التحليل اللغوي لأنه ينبغي أن يستند على الدراسات الوصفية التزامنية (Synchronique) تأتي منطقيا في الدرجة الأولى ولكن ينبغي أن تستند على الدراسات التاريخية التطورية للأنظمة اللغوية الموصوفة أو المدروسة.

ثانيها : تحليل المستوى التاريخي من أجل تحديد منشئه وروابطه من التجليات السابقة عليه، ليس هناك من خطاب متجانس ومعاصر تماما لذاته إنه مرتبط بالماضي وبإمكانه أن يسبق المستقبل.

ثالثهما : تحليل المستوى السوسيولوجي من أجل موضعه بصفته بوصفه انعكاسا للحاجة والصراعات والآمال الراهنة لجماعة متقلصة أو مشعة، أكثرية أو أقلية مسيطرة أو مسيطر عليها.

رابعهما : تحليل المستوى الأنثروبولوجي من أجل تحديد نقطة ارتكازه وتمفصله مع البنى الأنثربولوجية لكل ظاهرة بشرية.

خامسهما : تحليل المستوى الفلسفي من أجل قياس علاقاته بالكائن وعلاقته بالتماسك الأخلاقي، الميتافيزيقي للذات البشرية. ينبغي القيام بكل ذلك ليس داخل سياج تراث ثقافي مغلق وإنما ضمن المنظور الفوق ثقافي والفوق تاريخي "لنشأة مدمرة للمعنى".

سادسهما : فيما يخص المثال الإسلامي وكل تراث ديني آخر فإن تحليل المستوى الثيولوجي يعتبر أمرا لا مفر منه. ينبغي على الخطاب الثيولوجي أن يتمثل كل مستويات التحليل المذكورة وبدون هذا الانفتاح يبقى الخطاب الثيولوجي عبارة عن تبجيل دفاعي لأمة منغلقة على قناعتها ويقينياتها (5) النموذج الآخر من كتابات "أركون" ـ ما شرحه من قراءات في ـ القرآن ـ إشارة إلى نقطتين وهما:

أولا : ما يجب على القارئ أن يتزود به من تكوين علمي والإحاطة بالأرضية المفهومية الخاصة باللسانيات والسيميائيات الحديثة مع ما يصاحبها من أطر التفكير والنقد الابستمولوجي.

وثانيا : أن يتدرب القارئ على التمييز بين الاحتجاج والإدراك والتأويل، والتفسير الذي يتم في الإطار المعرفي العقائدي الدوغمائي وبين التحليل والتفكيك للخطاب الديني فهذان شيئان مختلفان. فتحليل الخطاب الديني أو تفكيكه يتم لا لتقديم معانيه "الصحيحة" وإبطال التفاسير الموروثة بل لإبراز الصفحات اللسانية اللغوية وآلات العرض والاستقلال والإقناع والتبليغ والمقاصد المعنوية الخاصة بما أسميته "الحطاب النبوي" (Le discours Prophétique) (6)

إن تحليل الخطاب الديني يتبنى تساؤلات الأنثروبولوجيا الدينية والثقافية والاجتماعية للوصول إلى التعرف إلى المفهومات والتصورات وطرق التأصيل للعقائد والمعاني التي تتبنى عليها جميع الأديان المعروفة في تاريخ المجتمعات الإنسانية، أضف إلى ذلك كله أن علم الأنثروبولوجيا الحديث يمارس عمله كنقد تفكيكي وعلى صعيد معرفي لجميع الثقافات البشرية المعروفة.

وقد أثمرت الأنثروبولوجيا أو أخصبت التفكير الحديث عن طريق بلورة ما أسميته "بالمثلثات الأونثروبولجية" (Anthropologique Triangles) وهي مثلثات من نوع: "العنف والتحريم والحقيقة" أو "الوحي والتاريخ والحقيقة" أو "اللغة و التاريخ والفكر" (7) يقول أركون " إني أعتقد أن ساحة الفكر الإسلامي ملائمة جدا لكي نطبق عليها منهجيات العقل الجديد الذي يريد أن ينبثق، ولكي نعرف مدى مصداقية هذا العقل من خلال تطبيقه على تراث آخر غير التراث الأوروبي.

إن العقل الذي نحلم بظهوره هو عقل تعددي، متعدد الأقطاب، متحرك، مقارن، انتهاكي، ثوري، تفكيكي، تركيبي، تأملي، ذو خيال واسع، شمولي إنه يهدف إلى مصاحبة أخطار **العولمة*** ووعودها في كل السياقات الثقافية الحية حاليا أي في كل الثقافات البشرية المعاصرة (8)

كيف يمكن على حسب اعتقاد "أركون" أن نقارن بين تجربة الحداثة هذه وبين العالم العربي الإسلامي إذا كنا نجهل التاريخ الحقيقي للعصور التأسيسية العربية الإسلامية، أو نمتلك عنها صورة خيالية أسطورية ؟ هكذا نجد أن مسألة الفهم التاريخي للأمور تطرح نفسها منذ البداية. نقصد تاريخية الأشياء والظواهر بكل ملابساتها وانغراسها في خضم الشروط المادية والمعنوية للوجود.

وفي موضع آخر نجد "أركون" يلح على مسألتين اثنتين تتمثلان بمفهومين أساسيين هما: الزحزحة والتجاوز ـ بمعنى: ينبغي علينا أن نزحزح ـ أولا ـ ثم نتجاوز ثانيا: كل الأجهزة المفهومية والمقولات القطعية والتحديدات الراسخة الموروثة عن الماضي سواء أكان هذا الماضي ينتمي إلى جهة التراث الإسلامي أو إلى جهة التراث الأوروبي الغربي، فهذه الرواسب والتصورات الماضوية شائعة جدا لدى كلا الطرفين وتشكل أحكاما مسبقة تمنعنا من رؤية الأمور بوضوح.

أي من تشكيل نظرة تاريخية حقيقية كما وتمنع أي لقاء حقيقي بين الطرفين، لا ريب في أن عقلانية العلوم الاجتماعية ومنهجيتها شائعتان في المجتمعات الأوروبية الغربية أكثر من شيوعهما في المجتمعات الإسلامية عربية كانت أم غربية، ونحن نعلم أن هذه العلوم كانت قد نشأت منذ زمن بعيد ورافقت (إن لم تكن قادت ووجهت) التطور الصناعي و العمراني والسياسي والقانوني والمؤسساتي للمجتمعات الأوروبية وهذا ما لم تشهده المجتمعات العربية والإسلامية حتى الآن (9)

حتى نتخذ مما ذكرنا أمثلة نجد أن "أركون" اختار التنطح لدراسة مسألة الإسلام والحداثة في قراءة التراث من خلال كتابين ومفكرين اثنين.

الأول: هو كتاب "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" لابن رشد. (يتوقع أن يكون قد ألف حوالي عام 1187).

والثاني: كتاب "مقاربات الحداثة" للمفكر الفرنسي جان ماري دومينـاك (باريس 1987) وفيه محاولة لتحليل مشكلة الحداثة ومسارها في الغرب منذ عصر التنوير وحتى اليوم.

وقد يتساءل المرء: كيف يختار "أركون" كنقطة انطلاق قراءة التراث مفكرا إسلاميا يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ومفكرا فرنسيا معاصرا يتحدث عن الحداثة في أواخر القرن العشرين، والواقع أن "أركون" يريد أن يقيس المسافة الفاصلة بين لحظتين أساسيتين في تاريخ الفكر والحياة:

1. **لحظة المعقولية القروسطية،** فمن خلال تركيزه على "ابن رشد" يريد "أركون" أن يموضع فكره بالقياس إلى الفكر الإسلامي في عصره: أي بالقياس إلى فكر الفقهاء والمتكلمين، ويريد أن يتكشف وجود مسافة بينه وبينهم، ثم وجود خصائص مشتركة، "فابن رشد" ليس خارقا للطبيعة ولا يمكنه أن يكون. وعلى الرغم من جرأته وقوة فكره إلا أن له حدودا لا يمكن أن يتخطاها ولم يتخطاها. باختصار فإن "أركون" يريد أن يكتشف نظام الفكر الذي ساد العصور الإسلامية من خلال تحليله "لابن رشد" باعتباره يمثل أعلى نقطة متقدمة في ذلك الوقت.
2. **لحظة المعقولية الحديثة أو لحظة الحداثة:** من خلال قراءته لبعض نصوص المفكرين الأوروبيين التي تمثل اللحظات الأساسية في تاريخ الحداثة الفكرية رونييه ديكارت، توماس هوبز، فرانسيس بيكون، إيمانويل كانط، هيجل، كارل ماركس، نيتشه، فرويد، ماكس فيبير، غاستون باشلار، ليفي ستراوس، ميشيل فوكو، الخ... يريد "أركون" أن يموضع معقولية "ابن رشد" لا يمكن أن يكون لنا دليلا مساعدا من أجل بلورة الحداثة حاليا في المجال العربي والإسلامي. فالمسافة التي تفصل بين معقولية زمانه أصبحت شاسعة جدا بالقياس إلى المعقولية الحديثة التي ترسخها علوم الإنسان والمجتمع يوما بعد يوم (10)

فالثقافة العربية المعاصرة تعاني من انقطاعين اثنين لا انقطاع واحد: فهي منقطعة عن تراثها الكلاسيكي المبدع من جهة، وهي منقطعة عن حيرة ما أنتجه الغرب الأوروبي في مجال الفكر منذ أربعة قرون وحتى اليوم. والعرب منقطعون عن التراث في الوقت الذين يصمون فيه الآذان بتمجيد التراث؟ ويكفي أن نلقي نظرة على الواقع الراهن كي نتيقن مما نقول.

فالثقافة السائدة اليوم هي إيديولوجية أكثر مما هي معرفية. والأدبيات الإيديولوجية المسيّسة أو ذات الطابع الصحفي السريع تكاد تطغى كليا على الأدبيات العلمية والمعرفية. ولم يكن الحال هكذا في العصور الكلاسيكية: عصر ابن سينا والفارابي والكندي والجاحظ والتوحيدي والمعري والغزالي وابن رشد.

ضمن أية شروط معروفة (ممكنة المعرفة) يمكن لفكرة الحقيقة أن تتخذ شكلا قادرا على توجيه القدر الفردي أو إنتاج التاريخي الجماعي؟

نلحظ فورا الرهانات الأساسية التي تقبع خلف هذا التساؤل. إن الأمر يتعلق بزعزعة كل الخطابات التقليدية التي تحدثت عن الحقيقة ليس بواسطة التركيبات التجريدية وإنما عن طريق التفحص المنهجي لشروط انبثاق فكرة الحقيقة وصياغتها وانتشارها ثم استبعادها وتنكيرها أو حجبها.

إن فكرة الحقيقة تتجسد دائما وفي كل مكان عن طريق الفاعلين الاجتماعيين، إنها إذن شيء محسوس وملموس، يقول "أركون" وهذا ما حاولت أن أفعله في النصوص التي سيطلع عليه القارئ في كل ما كتبت. لكي أعطي وزنا نظريا ومنهجيا أكبر لهذه المحاولات فإني أود الإلحاح على بعض مواقف العقل المعاصر وآخر كشوفاته. سوف أكتفي بالنص على بعض المبادئ الحادة والقاطعة التي تهدف إلى إثارة الاعتراضات وبالتالي التفكير والمناقشة النقدية أكثر مما تهدف إلى تقديم أجوبة وإيضاحات جاهزة.

الهوامش والمراجع:

1. مطاع صفدي، كلام الكتابة بين الميراث والمورث، مجلة الفكر العربي المعاصر 1984/ العدد 32 ـ ص 4
2. محمد محفوظ، مقدمات في قراءة التراث: نحو قراءة حية لتراثنا، مجلة الكلمة، 1995/ العدد 6، ص 26 -27
3. محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، تر: هاشم صالح، دار الساقي، ط 1، 1997، ص 245
4. المرجع نفسه، ص 246
5. محمد أركون، المنهجية المعاصرة والفكر الإسلامي، مجلة الفكر العربي المعاصر، 1984/ العدد 32، ص 28
6. محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر وتعليق، هاشم صالح، دار الطليعة، ط1، 2001، ص 5
7. المرجع نفسه، ص 7
8. محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، تر وتعليق، هاشم صالح، دار الساقي ط1، 1999، ص 329

* بمعنى أن عصر العولمة القادم يحمل في طياته الخير و الشر، الإيجابيات والسلبيات، المخاطر المخيفة والوعود الزاهرة. وكل شيء يتوقف على كيفية استفادتنا منه أو مواكبتنا إياه. والعقل الجديد الاستطلاعي ينبغي أن نطبقه على تراث الإسلام وعلى التراثات الأخرى في آن معا بما فيها تراث الحداثة

الأوروبية المستمر منذ مئتي سنة. فالحداثة أصبحت تراثا بعد أن تراكمت على نفسها طيلة هذين القرنين من الزمن. وبالتالي أصبحت بحاجة إلى التفكيك والنقد.

9. محمد أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، تر وإسهام هاشم صالح، دار الساقي، ط 2، سنة 2001، ص 9، 10

10. محمد أركون، ندوة مواقف، دار الساقي، ط1، 1990، ص، 324

11. المرجع نفسه، ص 353

12. محمد أركون، المنهجية المعاصرة والفكر الإسلامي، مجلة الفكر العربي المعاصر، 1984/ العدد 32 - ص 37